حول مقال

محمد رشيد رضا

لصاحب الفضيلة الأستاذ حامد محيسن

قرأت بإمعان مقالة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى ، في مجلة الرسالة الذائعة ، في ذكرى عالم ومصلح ، هو السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار رحمه الله؛ فمنت لي ملاحظات أحب أن أسجلها للقراء على صفحات الرسالة . وإن كانت هذه الملاحظات لا تبخس الكاتب قدره ، بل إنما تدفعنا إلى أن نضاعف شكره .

وأهم هذه الملاحظات هي:

أولا : أخذ الكاتب الأفكار التي دونها في مقالته من كلمة الشيخ الزنكاوني في حفلة تأبين السيد رشيد رضا التي أقيمت بدار الشبان المسلمين عام ١٩٣٦ ، وكنت حاضرها بصحبة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي ، وكانت الحفلة برئاسته . وقد نشرت كلمة الشيخ الزنكاوني في الصحف كلها حينذاك ومنها الجهاد (عدد ٢ إبريل عام ١٩٣٦ ميلادية) وهو تحت يدي الآن. وقد ألقاها بالنيابة عنه في الحفلة فضيلة الشيخ محمود شلتوت. وإن شئت فاستمع لهذا الاتفاق الظاهر !

قال المرحوم الشيخ الزنكاوني في أسلوب ساحر أخاذ : « طلاب الشيخ — محمد عبده — جميعا كانوا يغترفون من بحر واحد ، وإن تفاوتت مراتب جهودهم واستعدادهم » . فقال الكاتب : وبالرغم من كثرة المستمعين للشيخ محمد عبده، وتفاوت درجاتهم في الذكاء والتحصيل ؛ فإن أحدا منهم لم تعمل فيه آثار الشيخ أقوى مما عملت في السيد رشيد ، فكانوا على ضروب وأنواع — ثم أورد حديثا للبخاري وقال إثر ذلك — كذلك كان تلاميذ الشيخ محمد عبده : منهم من لم ينتفع في نفسه ، لأنه مجدب الطبع ، سميخ التربة ؛ ومنهم من نفع غيره ، فنقل مبادئ الشيخ لغيره ، وإن كان هو لم ينتفع بها ، أو قل انتفاعه ؛ ومنهم من انتفع في نفسه ونفع غيره الخ » . فالفكرة هي الفكرة ولكن الشيخ الزنكاوني عرضها عرضا سليما ، من حيث أطلب الأستاذ ، وذكر حديث البخاري دون مناسبة ، وقاس أصحاب محمد عبده بأصحاب الرسول الأعظم ، وأخطأ في عده من لم ينتفع بدروس محمد عبده ولم ينفع غيره نوعا من أنواع تلاميذ الأمام . ولا ندري معنى تعبيره في هذا المقام بقوله : « لأنه مجدب الطبع سميخ التربة » ؛ وبقوله : ضروب وأنواع »

وقال الزنكاوني : « كان لصاحب المنار منذ عرفته مصر وجود قوي ، وشخصية بارزة ، امتد صوتها إلى الأقطار العربية والأقطار الشرقية ، بل كان لهذا الصوت أثر في بعض الأمم التي ليست شرقية ولا إسلامية الخ » . فقال الكاتب : « اتخذ من المنار منبرا يدوي منه صوته في جميع بقاع الأرض في جاوة وسومطرة والهند والصين شرقا إلى أوربا وأمريكا غربا»

وقال الزنكاوني : « ولما هوجم الأستاذ الإمام في آرائه الدينية والإصلاحية أخذ السيد رشيد يواجه خصوم الشيخ بقلمه ولسانه وينشر في مجلة المنار آراء أستاذه واتجاهاته وكان يتلقاها من دروس شيخه ، وما كان يعلق عليها بعبارات من عنده تدل على كمال الفهم واستقلال الفكر » . فقال الكاتب : لم يكن هذا التلميذ — السيد رشيد — مسجلا لأفكار شيخه فحسب ، بل كان مع ذلك مناقشا ومحصا وموجها » . وقد أراد الشيخ أن يعبر عن كلمة الزنكاوني : « اتجاهاته » ، فقال : « موجها » ، فأخطأ فهم ما أراده الزنكاوني ، كما أخطأ التعبير عنه . فهل كان السيد رشيد موجها لأستاذه ؟ كلا ، أو هل كان موجها للجمهور بعد موت أستاذه ؟ كلا ، لأن العبارة الصحيحة عن ذلك أن يقال : « كان يناقش آراء أستاذه ويمحصها ويوجه الجمهور على هداها » مثلا

وقال الزنكاوني عن السيد رشيد : إنه كان من الأفذاذ الذين يخل التاريخ بالكثير من أمثالهم ، ولعل أكبر شاهد على ذلك أن مهمة السيد رشيد لم يستطع إلى الآن أن يقوم بها فرد أو جماعة على كثرة العلماء والكاتبين . فقال الكاتب : « كل ذلك كان يقوم به وحده ، فحقا إن السيد محمد رشيدا أمة ، وغير ذلك من صنع رجل واحد ، فإنه عندما جاور ربه حاولت هيئات كبيرة وجماعات محترمة أن تخرج للناس مجلة تسد فراغ المنار فلم يستطع

أحد منهم على كثرتهم » . وفى العبارة رغم ذلك قلق واضطراب كثير .

وقال الزنكلونى : وكان آخر آية فسرها من سورة يوسف ومات على أثر تفسيره لها قوله تعالى : رب قد آتيتنى من الملك ألخ . فقال الشيخ عبد الجليل مخاطبا السيد رشيد : ألم يكن من علامات قبولك أن آخر آية من كتاب الله سطرت شرحها بخطك هى قوله تعالى : رب قد آتيتنى من الملك ألخ .

ثانيا : ومحور المقالة رمى كبار علماء الأزهر بمحاربة السيد رشيد ومعاداته ، وإن شئت فاستمع قوله : كنت أعلم أن كثيرا من علماء الأزهر خصوصا الكبار منهم كانوا يحيطون السيد رشيد بهالة من الشك فى تدينه ، رغم أنهم لم يجالسوه أو يختبروا علمه أو حتى يكلفوا أنفسهم قراءة كتبه ؛ ثم يذكر قصة ثلاثة من كبار علماء الأزهر تحايل كما يقول عليهم حتى ذهب بهم للمنار وحدثوا صاحبه وحدثهم ، فأنكره البعض وعرفه الآخرون . ويقول الكاتب أيضاً ؛ وكان السيد رشيد يحارب فى ميادين أخرى علماء جاهلين مقلدين الخ .

أليس فى ذلك ظلم للتاريخ ، وجور على العلماء الذين عرفوا السيد رشيدا وأحبوه وشجعوه وأحاطوه بالإكبار ؟ وإن مجالس السيد رشيد لم تخل يوماً من العلماء ، كبارهم وصغارهم على السواء . ولا ينسى الكاتب التنويه بنفسه وأنه كان وحده من بين العلماء على صلة معروفة بالسيد رشيد ؛ وإذا كنت أيها الشيخ الجليل كذلك فكيف أنكرت السيد رشيدا على ممر الأيام ، فلم تقف فى حفلة تأبينه رائيا مع الواقفين من أمثال الزنكلونى والمدوى والهراوى وعبد الله عفيفى وشهبندر ومحمد لطفى جمعة وغيرهم ، بل ولم تكتب عنه كلمة إلا الآن ؟

ثالثا : وفى المقالة تعبيرات طريفة مثل : ذهب مع الريح ، صار شبيها بشريط تسجيل ، وهى قذائف لا تكاد صغير النفس إلا أن يرسلها من فمه ، كأن الأحاديث كانت فى طبق أمامه يلتقط منها ما يريد ، يحيطونه بهالة من الشك فى تدينه ، هذا العمل الذى سجله الشيد رشيد الخ .

رابعا : وفى المقالة أساليب وكلمات غير مستساغة ولا مقبولة لغة أو ذوقا ، :

مثل قوله : العالم المصلح الذى يمكن الاستفادة منه ، وصحتها الأفادة .

وقوله : أزكى فيه روح الثورة ، وكررها بالزاى أيضا فقال : بجرأة وشجاعة أزكاهما النفى والتشريد . والكاتب يقلم أنه يقال : « أذكى النار : أشعلها ، وأذكى الله المال : أصلحه وطهره ، والمعنى الأول هو المناسب هنا فكان الأولى كتابتهما بالذال لا بالزاى .

ومثل قوله : ينفخ فيهم من روح اليقظة ما فتح عيونا عميا ؛ وما هنا مفعول ، ونفخ لا تتعدى بعد الجار والمجرور إلى مفعول ، يقال : نفخ فى النار ونفخها ، ولا يقال : نفخ فى النار ما جعلها تضىء فى البيت مثلا ، وإن كان يقال : مما جعلها تضىء .

ويقول فى كبار علماء الأزهر الذين احتال عليهم حتى يلتقى الجمان ؛ والقارىء يعرف إذا كانت تصح هنا هذه الكلمة أولا تصح ، وليرشدنا الشيخ الجليل إلى معنى كلمة الجمين هنا .

ويقول : أكتفى بذكر حادثة وقعت لى أنا شخصيا ، وهو تعبير علمى مرذول .

ويقول فى الأفغانى : فصار ينفخ فيهم من روح اليقظة ما فتح عيونا عميا وآذانا صما ، مما اعتبره الباحثون عود ثقاب أشعل به نارا على المستعمرين . والأسلوب يقتضى أن يقال : أشعلت به النار ، ببناء الفعل للمفعول .

خامسا : وفى المقالة أخطاء تاريخية مثل قوله : « وهذا — أى الرمى بالزندقة — سلاح قديم حورب به الأنبياء والمصلحون ألم يقل ورقة بن نوفل للنبى (ص) : ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أوذى ؛ وكذلك ذاق البخارى والغزالى » . فهل رمى محمد (ص) بالزندقة ، وهل رمى بها الأنبياء قبله ، وهل رمى بها البخارى والغزالى ؟ أليس ذلك إفتراء على التاريخ ؟

ويقول : كان السيد رشيد يحارب سلاطين جائرين ، وحاكمين ظالمين . والتاريخ ينبئنا أن السيد رشيد وقف حياته على نشر آراء محمد عبده وأفكاره فى الإصلاح .

ويقول : لم يعتمد — السيد رشيد — على ملك ولا حكومة أو جمعية أو حزب . فهل نسى الكاتب اعتزاز السيد رشيد بعطف المغفور له الملك فؤاد عليه وأثر ذلك فى نفسه ؟

سادسا : ولا أنسى إن أقول أن نصف المقالة أحاديث شتى عن ما عدا ذكرى السيد رشيد رضا ، وكان من الواجب ترك